انشقاق فوتيوس ـ تاريخ واسطورة

بقلم الاب يوحنا كابلّوس اليسوعي

قال دفورنيك « Dvornik »[1] في مطلع فصله الاول : «من المؤكد ان التاريخ قلما عرف اسماً كان محور المتناقضات كما تضاربت حول اسم فوتيوس الآراء . فاذا كان في نظر الشرق المسيحي بطلاً وقديساً فهو في اعين الغرب ممقوت لانه اثار قوى التفرقة والانشقاق الهدّامة . ولئن اتخذه الشرق شفيعاً عند الله فان الغرب يجعل منه رمز الكبرياء وسورة الحمية الاكليريكيتين. وان احترمه الذين يطالبون باستقلال قومي وسيع في حياة الكنيسة ، فان غيرهم ليصدف عنه يردّهم لانه يرمز الى الانقسام والى تهديم الجامعة المسيحية . . . فلذلك بات ردحاً طويلاً من الزمن سمة التناقض» .

ولم يكن تأثير فوتيوس دينياً فقط : وقد رأى فيه بعض الفلاسفة واللغويين منذ عهد النهضة عبقرياً حمل مع غيره الى الاجيال الطالعة نَشَب[2] الثقافة الاغريقية المدرسي .

ومن كان هذا شأنه في تضارب الآراء يحقه فجدير بان نعيد النظر في سجل حياته لنقف عنده ولو بعض التوقف،ونقارن بين الشهود فنتبين اذا كانوا قد اضلّوا سبيلاً في اقوالهم حتى اذا دعت الحاجة ارجعناه الى مقامه في اعين الاجيال الطالعة .

وانها للمهمة التي اتخذ الاب فرنسيس دفورنيك ، الاستاذ في جامعة براغ الكاثوليكية ، على عاتقه امر معالجتها بمجلد باعث على الدهشة وبعلم يستجلي الغوامض والبواطن . فيا لها من مهمة في خير مناسبة .

وها هي ذي ريح تهبّ عن بعد وطفقت تبدّد الغيوم الملبدة وتنقي الجوّ الذي ظلّ وتناً طويلاً قاتماً مسوماً .

---

(١) François Dvornik : *Le Schisme de Photius, Histoire et légende.* editions du Cerf in-8° 662 pp. Paris 1950

٢) النَشَب : في القاموس المال الاصيل من الناطق والصامت وقد استخدمنا هذه اللفظة لترجمة كلمة « patrimoine » الفرنسية .

واننا نود الكلام على هبوب هذه « الريح المسكونية » التي علقت منذ عشرات السنين تعبر سماء الكنيسة وتنظف العقول التي افتحها منذ اجيال بعيدة سموم احكام خاطئة وسوء فهم وحذر متبادل واحقاد مذهبية.

وتبدو قضية الوحدة المقدسة مثار احدث اهتمام في عصرنا وهي من دون شك التي ستميز الشكل الديني للنصف الاول من القرن العشرين.

وللنفس المؤمنة في مثل هذا المقام اكثر من حافز انساني بحت ، ففيه يد الله ونعمة الروح القدس التي تاج شيئاً فشيئاً المجهودات البشرية لتوجيهها وتسيرها الى الوحدة من دون ان تكبحها بالعنف .

وما الامر هنا الا تمهيد واعداد بعيد ينعشه الامل السري الذي سيهبه اياه الله ليأتي ثماره . والعمل على جمع شمل الاخوان المشتتين هو المهمة التي لا تستطيع كل نفس تحب المسيح وكنيسته وتجعل النجاح سرّ الغداء — عمل الله الاعظم — فوق كل شيء ان لا تضطلع به .

ولهذا « الاعداد البعيد » طرق شتى للعمل : بالصلاة ، والمثل والقول والقلم . . . وليس لهذه المجهودات الا غاية واحدة وينبغي ان لا يكون لها غير غاية واحدة، اي ان لا تُديل[1] من احد ولا من مذهب بل ان تكشف الحقيقة وتؤمن انتصارها في سبيل هذه الحقيقة نفسها التي كانت اذ كلنا توّاقٌ اليها لانها بنت الله !

وثمت حقيقة ذات قيمة لدى جميع البشر يستطيع قبولها كل تلميذ ليسوع المسيح . فنحن نودّ ان نتحد ونعانق بعضنا بعضاً في هذه الحقيقة معانقة اخوية .

ولنقتصر هنا على قول كلمة في هذا الاعداد ضمن نطاق من يحيط علماً بالشيء عن طريق القلم لان كتاب الاب دفورنيك هو الذي لفت انتباهنا — فاذا كان في مقدورنا جميعاً العمل في سبيل الوحدة بالصلاة او المثل . . . فان المساهمة فيه بواسطة القلم لاشد دقّة بسبب مستلزماتها العلمية من تاريخية ولاهوتية التي هي من دأب أولي الاختصاص الذين وقفوا النفس بصبر لا ينفد

[1] ادال منه : اي غلب .

على هذه المهمة لاستقرائها استقراء رائده الوجدان . وليس هولاء الاختصاصيون قليلي العدد، اذ منهم في كلّ بقاع العالمين، ولاسيما في اوروبا . فهناك مؤلّفات من الطراز المعلم بقيمتها «من كتب ومقالات في المجلات ومن معاجم ومجاميع ومحاضرات . . .» تعمل مساهمة لاستمرار «شعلة الوحدة» وتشيع النور على الشؤون الحيوية التي تتصل بعمل الوحدة .

ومجموعة نشرات «واحدة مقدسة» «Unam Sanctam» قد اتخذت على عاتقها مهمة اضرام هذه الحماسة واغداق هذا النور . وها هي ذي نشرتها العشرون والمجلّد العشرون . اما الجزء التاسع عشر فبقلم المؤرخ والعالم الشهير الاب فرنسيس دفورنيك وعنوانه : «انشقاق فوتيوس ، تاريخ واسطورة» .

والمؤلف المذكور ممّن تفوّق بين مؤرخي ذلك العهد الصاخب بين عهود وتاريخ القرن التاسع البيزنطي ، وله فيه القِدح المعلى ولا يضارعه كفاءةً احد لانه وقف جميع ايامه على التنقيب فيه . ولقد اطّلع الجمهور على نتائج بحوثه في مؤلفاته العديدة ومقالاته التي نشرها في المجلات .

وصدور هذا الجزء كان قد اعلن عنه الجمهور لسنة ١٩٣٧ او ١٩٣٩ ، لكنّ الحرب حالت دون امنيّته فصدر عام ١٩٥٠ .

وفي توطئة موجزة اوضح لنا المؤلف كيف رأى كتابه النور . . . لقد كان يدرس حياة الرسولين السلافيين القديسين كيرللوس «Cyrille» ومتودوس «Méthode» واعمالها فقال : «لقد القت في ذهني هذه الدراسة انه لا متدوحة عن تدوين تاريخ البطريرك المشؤوم فوتيوس من جديد . فهناك مجال لاعادة النظر في الحجج التي حكم عليه بالاستناد اليها . . . وكانت نتيجة بحوثي الاولى ان اكتشفت تفاهة قيمة المصادر التي استند اليها تاريخ الانشقاق الثاني:

وقد وجدتُ ان كلّ ما كتب عن القطيعة الثانية بين فوتيوس وروما انه ليس غير صحيح فقط بل مخاتلة محضاً . . .(ص ٢٣—٢٤) . وشرع المؤلف بعمله صادراً عن فرض هو في مصلحة فوتيوس ، وهو ان سجلّ حياته البيزنطي لا يستحقّ الثقة التي اولاه اياها المؤرّخون لانه قد كتبه الخصوم ورتّبوه فلذلك كان تاريخاً زائفاً برمّته في مصادره نفسها . وفضلاً عن هذا فان بيزنطية كانت

في العهد الذي درسه دفورنيك كأنها منشطرة حتيتين[1] مختلفتين كل الاختلاف في عقليتها الا هما فئة الاحرار الذين يدعمون فوتيوس وفئة غير المتسامحين او المتعصبين الذين يناصرون قضية اغناطيوس . ولكن لم يصل الينا الا سجل القضايا المعادية لفوتيوس .

ما قيمة هذا السجل ؟ لقد انخدع به مؤرخون حسنو النية كبارونيوس « Baronius » وهرغنرويتر « Hergenröther » وغيرهما ، وذلك بالثقة التي منحوها لاولئك الانصار المتحمسين المتحزبين ثقة بعيدة عن النقد ولا يستحقونها ، على حين ان القضية كانت تستلزم استئناف البحث فيها بالاستناد من جديد الى غيرهم.

ولقد انصرف دفورنيك بدأب لا يعرف الملل — ولا نقوى الا على ان نعترف له بالجميل عليه — الى درس هذه القضية .

فنسأل من نفسه : هل هناك انشقاق ثانٍ لفوتيوس ؟ ام هذا الانشقاق الثاني الذي عُزي الى ذكر اسمه كان خطأً تاريخيًا علينا ان ننزعه من التاريخ الصحيح ؟

انه من الثابت تاريخيًا ان فوتيوس قد ارتكب جريمة الانشقاق الاول عندما اقدم ، في ساعة حنق ، على حرم البابا القديس نقولا الاول بجسارة لم يعرف لها التاريخ مثيلًا ، وذلك في احد المجامع المنعقد في بيزنطية سنة ٨٦٧ (ص ١٩٣) ؛ فكان ان حرمه بدوره القديس هادريان الثاني « Hadrien II » خليفة نقولا الاول المباشر على عمله هذا . اما نقولا الاول فقد ادركته الوفاة قبل ان يعلم ما ارتآه فوتيوس .

ولقد ارتقى فوتيوس السدة البطريركية مرتين .

والامر الذي علينا ان نعرفه هو انه اذا كان قد حُرم للمرة الثانية ؟ واذا كان يوحنا الثامن هو الذي حرمه سنة ٨٨٦ كما يُذاكر لنا المؤرخون حتى الآن.

لقد افضت البحوث التي قام بها دفورنيك الى ان يجيب بالنفي على هذا السؤال والى ان يرغب في اصلاح التاريخ الرسمي حول هذه النقطة .

---

١) وفي الحديث قاموا حتيتين اي جماعتين ، ومقامه ان بني اسرائيل لما أمروا ان يقتل بعضهم بعضًا قاموا حتيتين وقد اخترنا هذه العبارة لترجمة عبارة «deux groupes rivaux» الفرنسية .

اجل ان نتيجته هذه لذات اهميـة ويودّنا ان نتيقّنها . اما دفورنيك فيقول لنا اننا على يقين بشأنها ، وهو يتفق في هذا الصدد مع اختصاصي آخر مشهور بالتاريخ البيزنطي الا هو الاب غرومل « Grumel » (من الآباء المرسيين الانتقالين ، المحرر في مجلة « صدى الشرق » التي تحوّلت بعد الحرب الاخيرة الى « بحوث الدراسات البيزنطية » .

والاب غرومل قد وصل الى النتيجة نفسها التي وصل اليها دفورنيك عن طريق قيامه ببحوث من الطراز ذاته ، ولكنها بحوث مستقلّة عن زميله « لان احدهما كان يجهل عمل الثاني » ، وذلك عن طريق نقد المظانّ البيزنطية عينها المشبوهة كل الشبه نقدًا دقيقاً .

ولقد بسط الاب دفورنيك امامنا نتيجة هذه البحوث في كتابه . امـا نحن فيشوقنا ان نطالع الجمهور الجمّ على هذه النتائج وبذلك نغبّط النفس على خدمتها الحقيقة ونقضها خطأً قد استمرّ طويلا .

١ً – طلائع المأساة : راودت دفورنيك في فصله الاول الضافي فكرة موفّقة وهي ان ينتقل بنا الى جوّ بيزنطية الفلسفي الديني في الشطر الثاني من القرن التاسع ليجعلنا ندرك ادراكاً تامّ منطق الحوادث الباطني الذي سيذكرنا به .

اجل لقد كانت العقول في بيزنطية منقسـة انقسـاماً بيّناً الى فئتين : فئة المحافظين او المتعصّبين وفئة الاحرار او المعتدلين . وكانت جذور تلك الاختلافات قديمة تعود الى ما قبل تاريخ حروب تكريم الايقونات ، اي الى نشأة الامبراطورية نفسها (ص ٣٥) .

ويقول هذا العالم ان خاصة العقلية البيزنطية المنفردة بها تتضح من دور تلك الاحزاب :

« لقد كانت المسيحية الشرقية تستند الى اساس قومي مما خوّل كل مؤمن ان يساهم مساهمة فعلية في الخدمة الالهية وحياة الكنيسة واتاح السبيل الخاصة للادلاء بآرائهم في اغمض النقاط اللاهوتية . فقامت منظمات شعبية كالمنظمة الزرقاء والخضراء لتكون كاندية لحشد المناضلين في سبيل التعاليم الصحيحة او الخاطئة وباتت كمرجع لتدعم نشاط زعماء كل فئة من تلك الفئات » (ص ٣٦) .

ومَجلَت [1] فكرة الحزبية القديمة حتى بعد تصفية خصومات تكريم الايقونات (٨٤٣) بشكل جديد في الصراع الذي نَشَب بين انصار « Iconoma » (الذين يعملون بموجب اتفاق هادئ في امور لا تتعلق بالايمان) وبين المتعصبين الاشد تعلقاً في التمسك باحترام العادات الاكليريكية وتطبيق القوانين المقدسة (ص ٣٧) .

وكان المتعصبون من الرهبان ولاسيما الاستوديون « Studites » ومن الطبقات ذات الثراء الاشد تمسكاً بالتقاليد الدينية القديمة . اما المعتدلون النازعون الى سياسة « Iconomia » فكانوا يجدون مشايعيهم بين الطبقات العاملة المعرضة لمصاعب حياتها اليومية ، ولذلك كانت تميل الى الاتفاق .

واننا لنرى كيف كان الشعب البيزنطي في تلك الاوضاع والانماط [2] ممعناً في تقبقره في عهد منازعات الفرقتين الزرقاء والخضراء السياسية الدينية القديمة (ص٣٩) ، كما نرى كيف كان الاحرار والمتعصبون ينصبون الاباطرة والبطاركة ويعزلونهم كما توحي اليهم اهواؤهم الحزبية .

واعادة تيودورا « Théodora » تكريم الايقونات (٨٤٣) افتتحت مرحلة في اتساع الحزبيين (ص ٤٢) . وعقب وفاة البطريرك يوحنا غراماتيكوس « Jean Grammaticos » (٨٤٣) نصبت هذه الامبراطورة خلفاً له متودوس « Méthode » ، وهو من الاحرار المعارضين للاستوديين فعيّن هذا الاخير في المراكز الشاغرة مرشحين احراراً — فاستشرى [3] غضب الاستوديين ونصبوا انفسهم مدافعين عن القوانين المقدسة ورفعوا الصوت حاملين على الحزبية والاجحاف . وتجم عن ذلك انشقاق داخلي ، وانتهى الامر بتوديوس ، الذي استاء منهم ، ان حرم الاستوديين وانصارهم .

ولقد كان لانشقاق الاستوديين هذا وطأته على تطور الحوادث التالي . فلذلك لا نرى مفرّاً من ان نقول فيه كلمة تعطينا فكرة وضيئة عن ذلك الجو

---

١) خَجلَ او جَجل : تقول ججلت اليد اي ظهر في جلدها كالنفاخات يستظها ماء من عمل او حرق وقد استخدمنا هذه اللفظة لترجمة كلمة « surgir » الفرنسية .

٢) نَمَطٌ : في القاموس معناها جماعة امرهم واحد وقد استعملناها لترجمة لفظة « cadre » الفرنسية التي وضعوا لها لفظة ملاك .

٣) يقال استشرى غضب فلان اي احترق من الغيظ .

الصاخب صخباً خاصاً ، وسوف تجري فيه احداث لن نهمل الاشارة اليها .

ويجدر بنا الملاحظة ان كل ما يسرده لنا دفورنيك عن ذلك العهد الشديد الاضطراب ليس جديداً . اما الحقيقة فهي غيرها في نقاط عدّة .

ويرتبط القرن التاسع ، ازهى عهود بيزنطية اشعاعاً ، باسم فوتيوس — لانه بعد التبديل الذي بدأته الاسرة الايزورية في القرن الثامن وبعد انتصارها على مبغضي الايقونات (٨٤٣) كانت بيزنطية في اوج ازدهارها . وقد انتهى الامر بالعنصرين الشرقي واليوناني اللذين تحاربا اكثر من قرن الى التآذج، فعرفت بيزنطية بفضله نهضة امتدّت من المضمار العقلي الى المضمار السياسي، وبلغ الشعور القومي مبلغاً من الثقة ليعلن تفوّقه على العالَمين اللاتيني والاسلامي .

ولا شكّ في ان شخصيّة فوتيوس الذي رسم لنا دفورنيك الصورة التالية عنه كانت قطب تلك النهضة :

«لقد كانت سعة معارفه تثير اعجاب ابناء عصره وتفرض احترامه على الدّ خصومه . فكان ينتمي الى اسرة نبيلة يونانية الجنس وكان يمتّ بصلة النسب الى احدى الاسر المقدونية . اما ابوه الذي عانى مرّ الاضطهاد لتمسكه بتكريم الايقونات فكان موضع احترام المؤمنين . واذا لم يكن فوتيوس الشديد التقرب من البلاط الامبراطوري يتمتع بمحبة منافسيه ، الامبراطورة تيودورا (واللوتس) « Logothète» تيوكتيست « Théoctiste » وبرداس عم الامبراطور الفتى ميخائيل الثالث ، فانه كان على الاقل يتمتع باحترامهم . ولقد رفعت شهرته كعالم مدرسة القسطنطينيّة المركزية الى مرتبة جامعة . اما ندوته الادبية التي كانوا يتناقشون فيها بالادب المدرسي ، وهو الموضوع الاكثر رغبة فيه ببيزنطية ، فكانت تجتذب اليه نخبة الطبقة المثقفة » (ص ٣١) .

وعاش فوتيوس في عصر سيطرت فيه المجادلات اللاهوتية التي اشربت النفوس روح التعطّب . اما اضطهادات اصحاب نظرية تحطيم الايقونات فقد تركت في نفس الكنيسة نَدَبَة جراح عميقة اهتم لشفائها منها البطريركان القديسان متوديوس (٨٤٣ — ٨٤٧) واغناطيوس . فكان نجاح اولهما قليلاً حتى مَجِلَ انشقاق جديد قامت به العناصر المحافظة التي سبق لنا ان ذكرناها وهي العناصر التي تعترف بسلطة رهبان ستوديون « Stoudion » .

ولقد مات متروديوس تاركاً خلفه حالةً شديدة الاضطراب . فوُفق اغناطيوس الذي كان من نبعته[1] اجتذاب الرهبان المشاغبين اكثر من سلفه بيد ان توفيقه كان مجلبة لردّة فعل قوية لدى خصومه اذ انقسمت الدسائس السياسية لتزرع التصدّع بين حزب الامبراطورة وحزب اخيها برداس الذي حالف الامبراطور الشاب ميخائيل الثالث ، مما افضى الى قيام النزاع بين البطريرك واتباعه وبين الدولة (٨٥٨) (ص ٣٢) .

واختير فوتيوس خلفاً لاغناطيوس عندما كان على رأس مستشارية الامبراطورية ففتح ذلك في تاريخ بيزنطية «فصلاً كثير التقاوت يمثل فترةً تعاظمت مصاعبها في تاريخ المسيحية . وارّثت[2] اعمال فوتيوس نار معارضة قويّة فاوجدت له اعداء عرفوا ان يسوّدوا صحيفته ويصوّروا خبث نيّته ابشع تصوير ليتوصلوا الى تحطيم شهرته في نظر الاجيال .

ويبدو فوتيوس كما نعتوه انه رجل لا يزعزع وازع وجداني ولا حدّ لطموحه في سبيل ارتقائه السدّة البطريركية . فتواطأ مع حكومة ميخائيل الثالث وبرداس لاسقاط تيودورا وناصرهما ليتخلّص من اغناطيوس الذي لم يكن له الا ذنب وحيد وهو انه أدّب برداس لفحشه .

ولما رفض اغناطيوس التنازل عن سدته استولى عليها فوتيوس واضطهده مع اتباعه اضطهاداً لا هوادة فيه .

ولقد ارسل يطلب من نقولا الاول موافقته الرسمية بعد ان اعمت الكبرياء والطموح بصيرته وبدّل كل هذه الرواية . لكن البابا ابى الاعتراف ببطريرك ارتقى السدة متحدّياً الحق القانوني لانه كان مطلعاً على الامر بواسطة موفدي اغناطيوس السريين . . . فما كان من فوتيوس الا ان حشد جمعاً من الكنيسة الشرقية وعزل البابا واوجد الانشقاق الاول . . .

ووجد فوتيوس عقابه حالاً في عهد باسيليوس الاول « Basile » (الذي قتل ميخائيل الثالث واستولى على عرشه) فقد خُلع واعيد اغناطيوس الى

---

١) النبعة ضرب من الشجر والكرم بطبعه .

٢) ارّث النار اوقدها او اغرى بين القوم وقد اخترنا هذه اللفظة لترجمة فعل « susciter » الفرنسي .

كرسيه ... وعقب وفاة اغناطيوس عاد فوتيوس واكتسب عطف الامبراطور وتسلّم ثانية مقاليد الكرسي البطريركي ، ولكي يتأكد من موافقة البابا الذي كان يميل الى الاتفاق عمد الى خدعه بتحريف رسائله ورشوة مندوبيه وتزييف اعمال المجمع . ولما علم يوحنا الثامن بهذه الخدعة حرمه مباشرة. فكان من هنا الانشقاق الثاني الذي استمرّ حتى نهاية القرن التاسع وسوّد وجه القرن العاشر» (ص ٣٢—٣٣) .

هذه هي الرواية التي نستطيع حتى الآن قراءتها لدى المؤرخين . اما مهمة دفورنيك فتقوم على ان يحلّل بلبلة تلك الاحكام الشديدة التناقي ويستنبط منها ما فيها من نصيب صحيح تاريخيًا ويكتشف كيف انتشرت الاسطورة حول هذه الشخصية الكبيرة . فما اكتفى ببحث الذرائع العصرية ، ولكنه تابع ببحث التقليد عبر القرون الوسطى الى ايامنا القائمة الذي يلازم اسم فوتيوس في الغرب والشرق . واشهر المؤلفات التي حملت على فوتيوس هي كتابات الاب تيونوست « Théognoste » ورئيسي الاساقفة ستيليان «Stylien» ومتروفان « Métrophane » ونيستاس البافاغوني« Nicétas de Paphlagonie » وربما كان هذا الاخير هو واضع حياة اغناطيوس « Vita Ignatii » ، وثمت ملحوظات مؤلف مجهول وهي مجموعة ضد فوتيوس — وتمتاز هذه الكتابات برمّتها في كونها سامّة اللهجة قد اوحتها البغضاء. ولا سبيل لتعليلها بانها تطرّف بالاستمساك الديني والاخلاقي فقط ، فهي وليدة نزعتهم السياسية مصطبغة بالاعتبارات الدينية الاخلاقية . وتحمل هذه الكتابات كلها طابع الملاحاة السياسية الدينية ، وهي من وضع فئتين متعاديتين كانتا تتنازعان الاشراف على الكنيسة والدولة اي من صنع طائفة الاحرار او المعتدلين وطائفة المحافظين او المتعنتين .

ولا سبيل للشك مطلقاً (ص ٣٥) في قيام ذلك التيار المزدوج الذي كان يبذل كل فريق منه مجهوداته ليقبض على مقاليد الامبراطورية والكنيسة. ولقد كان ذلك الخلاف قائماً بين اغناطيوس وفوتيوس، وهو الذي يفسّر اسباب القطيعة بين المسيحية الشرقية والغربية في ذلك العهد . ولنستأنف مع دفورنيك النظر في مجرى تلك الحوادث بحسب تطورها التاريخي .

٢ — بطريركية اغناطيوس : بدا الموقف الديني صعباً غداة وفاة

متروديوس (٨٤٧) إذ انحاز قسم من الرهبان الى الانشقاق وكانت الحكومة قلقة وقد حيرها كثيراً موقف الاستوديين وحلّ الحزن خاصة بساحة تيودورا لانها كانت تعطف على الرهبان المتصلبين ، الذين عملوا كما نظنّ جميع ما في وسعهم لاكتساب عطفها .

وكان ذلك شديد السهولة عليهم بسبب استئناف حشد الصفوف في بيزنطية شيئاً فشيئاً اذ نُحّي برداس شقيق تيودورا تماماً وحلّ محله تيوكتيست « Théoctiste » . فحسد الاول الثاني ورأى الثاني في برداس منافساً له . وقد تودّد برداس الى الاحرار فارتضى تيوكتيست بطيبة خاطر بمعاضدة المحافظين المتعنتين له ليردّ على خصمه (ص ٤٨) . وكان لا بدّ لمثل تلك الاوضاع من ان تنجم الدسائس والمكايد .

ولم يكن اختيار اغناطيوس بطريركاً الا اتاحة للفرصة امام الحزبين ليختبر كل منهما قوته . والعديدون الذين قدّموا ترشيحهم (ص ٤٩) ومن جملتهم ولدا لاون الخامس « Léon V » باسيليوس وغريغوريوس قد ضرب على اسمائهم . اما الدور الاعظم فقد مثّله غريغوريوس اسبستاس « Grégoire Asbestas » رئيس اساقفة سيراكوز « Syracuse » ورئيس سياسة متروديوس الدينية وهو اصله من صقلية كمتروديوس .

ولا يعزب عنا في مثل تلك الاوضاع ان تتدخل الحكومة لتحول دون اتصال المضار المشؤومة بين صراع النزعتين بالكنيسة والدولة .

ومن المحتمل ان تكون الامبراطورة عزمت على مناصرة الراهب اغناطيوس ابن ميخائيل رنغابه « Michel Ranghabé » الذي كان آنذاك رئيس احد الاديار في جزيرة الامراء بناء على ايعاز وزيرها تيوكتيست .

ولكن كيف تمت ترقيته ؟ فهل الامبراطورة هي التي عيّنته ؟ ام هل استدعت مجمعاً للانعقاد لكي ينتخبه ؟ ليس لدينا شيء يثبت ذلك او ينفيه (ص ٥٠) . بيد ان كل ما هنالك ، كما يقول دفورنيك ، يحمل على الظن ان تيودورا التي كانت تحرص على تجنب ازدياد الاضطرابات لم تتبع الطريقة المألوفة فعيّنت هي نفسها ، بعد ان استشارت بعض الاساقفة من ذوي

النفوذ، اغناطيوس بطريركاً . ولقد اخذ خصوم اغناطيوس فيما بعد هذا عليه واعتبروه عملاً مغايراً للقانون (ص ١٣١) .

والظاهر ان في الظروف ما يوضح ان تيودورا قد قامت بعملها هذا من دون ان تراعي المراسيم التقليدية . وبدا ارتقاء اغناطيوس للسدّة البطريركية كانتصار للمحافظين المتعنتين . ولما كان اغناطيوس بعيداً عن التدخل في اي نزاع كان يجعل متودوس معارضاً للاستوديين فلم يكن باستطاعة انصار هذا الاخير ان يأبوا الخضوع له ، كما ان جميع الاساقفة قبلوا سيامته . ويلاحظ دفورنيك ان اغناطيوس افسد كل شيء بخرقه . فقد اعلم غريغوريوس اسبستاس بانه لا يريد ان يحضر حفلة تنصيبه الى ان تتضح قضيّته . فانسحب غريغوريوس حانقاً وضرب الشمعة التي كانت في يده بالارض وهو يصرخ قائلاً ان الكنيسة قد تأثمها ذئبٌ ، فلحق به بعض الاكليريكيين من الذين كانوا يشهدون الحفلة ومن جملتهم بوجه اخص مطرانا ساردس « Sardis » وابامية « Apamée » بطرس واولمبيوس « Eulambios » . فتوجه الى روما شكواه عليهما.

ويقول نيستاس « Nicétas » نفسه (واضع كتاب حياة اغناطيوس) ان بادرة البطريرك هذه كانت باعثة على الاسف ، لانها حالت دون ايجاده الاتفاق بين الحزبين والاتحاد والسلام في كنيسته . فبات منذئذٍ مرذولاً ! ورأى نفسه مقضيّاً عليه بانتهاج سياسة المحافظين المتعنتين الدينيّة ، وغدا يستطيع التعويل على مناصرتهم تعويلاً مطلقاً — فساق على نفسه كره الاحرار .

وعقّب دفورنيك (ص ٥١—٦٧) على حادث اغناطيوس — اسبستاس بقوله انه كان اشد خطراً مما يظن عادة . واذا تردّدت روما وتريّثت قبل اعلان موقفها ، فلأن الاسباب التي حُزل بموجبها اسبستاس والاساقفة لم تكن من الخطورة بمكان يستحيل معها مناقشتها . اما حزب غريغوريوس فرفع دعواه الى روما كمحكمة عليا مستنداً الى قوانين ساردیك « Sardique » (٣٤٢ ؟) التي تخوّل كل فريق حق الاستئناف اليها .

وهذا الحزب المعتبر عامة من الدّ اعداء البابوية كان يعمل في القسطنطينية ضد اغناطيوس ويشيع انه قد رفض رسالة احد الباباوات — ولا تغرب عنا

رؤية هذه اللعبة — : فحنقوا في بيزنطية على روما ولكنهم كانوا يعتمدون على سلطتها لمناهضة الخصوم .

ومهما يكن من امر فان هذه الحوادث توضح لنا النفوذ الذي تتمتع به كرسي روما في نفوس البيزنطيين . ومما تنبغي الاشارة اليه هو ان اغناطيوس لم تكن لديه الا فكرة غامضة كل الغموض عن موقف السدّة الرومانية وحقوقها في الكنيسة الجامعة اذ ان اول احتكاك له بالبابا يدلّل على ذلك (ص ٦٨) .

وخطرت فكرة غريبة لاغناطيوس وهي ان يبعث بوشاح الى البابا كان الحبر الروماني هو الذي يبعث به الى البطاركة كرمز لتقلدهم السلطة فرفض الحبر الروماني رفضاً باتاً قبول هديته هذه وارجعها اليه .

وجاء جهله للعادات التي تنبغي مراعاتها في مثل هذه الظروف برهاناً صريحاً على بساطة ذلك البطريرك . اما موقفه في استئناف قضية اسبستاس الى روما فيظهر لنا انه لم يكن يريد ان يراها تتدخل في الشؤون البيزنطية .

ومع هذا كله فانه لم يكن ينكر حقوق الكرسي الروماني ولكن لم يكن باستطاعته مع ذلك ان يقوم باعتراف هذا من دون ان يجلب على نفسه لوم الخصوم المشروع لانه لم يتقيد باحترام قوانين ساردیك .

هذه هي الصورة التي كان عليها الصراع الاكليريكي الخطير.

وثمت قضية اخرى ليست باقل خطورة لتسبب لاغناطيوس ارتباكات جديدة (ص ٧٣) وهي ان برداس وتيوكتيست ما طال بهما الامر حتى دبّ الخلاف بينهما وكان لا بدّ لاحدهما من ان يختفي من وجه الآخر . فقام برداس اولاً بعمله وتواطأ سنة ٨٥٦ مع ميخائيل الثالث واغتال تيوكتيست — وتمكن خصومها بما لهم من مهارة من اقناع اغناطيوس بالانحياز ضد ميخائيل وبرداس . فنجم عن تحيّزه ان ابى على برداس ان يتناول القربان المقدس يوم عيد الغطاس بحجة انه كان مسافحاً — ويؤخذ من اقوال ذوي الالسنة السليطة ان برداس اعتدى على عفاف زوجة ابنه . اما دفورنيك فيقول انه من الصعب اقامة البرهان على هذا الامر .

ولقد تسرّع اغناطيوس في ايلائه ثقته للشائعات التي روجها الخصوم، اولئك

الخصوم الذين كانوا يتوخون ازالة نفوذ الوزير في نظر الرأي العام .

ولما كان اغناطيوس رجلاً قديساً مستقيماً لكنه غير لبق وقليل الحذر فاستغلوا سذاجته وعدم خبرته في الشؤون السياسية الدينية بتلك البيئة التي غدا ابناؤها من مهرة المخاتلين المخادعين — فاعدّ برداس الاثار لنفسه . وفي سبيل ضمان وصوله الى السلطة قرّر ان يرسل شقيقته تيودورا وبنات شقيقه الى الدير وطلب من اغناطيوس ان يبارك مقرر الامبراطورة فرفض البطريرك النزول على طلبه لانه كان مديناً بكل شيء للامبراطور فاراد ان يكون وفياً لها . فرأى برداس في هذا الرفض برهاناً على ان اغناطيوس كان متضامناً مع خصوم العهد (ص ٧٦) الذين حاولوا في مؤامرة دبّروها القضاء على حياته وحياة ميخائيل . ويبدو ان الامبراطورة السابقة نفسها قد اشتركت فيها . غير ان المكيدة قد اكتشفت في الوقت المناسب فأُجتزت رؤوس المجرمين في ميدان السبق . ولقد ارتكب اغناطيوس الذي كان مشبوهاً ويراقبه رجال شرطة الامبراطورة قَدَامَة[1] جديدة فقد دافع عن احدهم المدعو جبيون « Gébéon » الذي زعم نفسه انه ابن الامبراطورة فاثار ضجة كبرى في القسطنطينية وقُبض عليه واعدم بشكل بربري . فازدادت بسبب هذه البادرة الريب التي خالجت الصدور فاتهم اغناطيوس بالخيانة العظمى ونفي (في اواخر تموز ٨٥٨) الى جزيرة تربنت (Térébinthe) واستدعي فوتيوس ليحلّ محله فقبل .

وهنا اثيرت مسألة خطيرة وهي : هل كان الكرسي البطريركي شاغراً ؟ ام ان اغناطيوس عُزل بالقوة . فاذا كان قد عزل جبراً فالجواب كلّا . اما اذا كان قد انتهى به الامر فقدم استقالته وان اسف عليها فالجواب نعم !

هذه هي المسألة التي ما برح الجواب عليها معلّقاً واجتهد دفورنيك طويلاً لايجاد حلّ لها (ص ٨٠) .

ويؤخذ من اقوال المؤرخين انهم قد استخدموا الحيلة لينتزعوا منه استقالته : فقد قدّموا له ورقة ليوقعها « كتب عليها بعدئذ فوتيوس بخط يده اعتراف اغناطيوس المزعوم بعدم قانونية انتخابه » (ص ٧٩) . هذه هي الرواية التي

---

١) القَدَم : قلة الفهم وهي جاء قَدَامَة وقد استخدمنا هذه الكلمة لترجمة لفظة « maladresse » الفرنسية .

ذكرها نيسيتاس التي تبعها المؤرخون من بعده .

وبالاستناد الى قول دفورنيك انها رواية لا تستحق الثقة بها لانها اغفلت الاشارة الى حوادث عديدة كان نيسيتاس يعرفها بدون شك بيد انها لم تكن تماشي هدف روايته الذي رمى الى تثقيل كاهل فوتيوس بالتبعة والدفاع عن اغناطيوس — وتلخص دفورنيك بعد مناقشة النصوص مناقشة طويلة (ص ٨٥): انه يؤخذ من اقوال متروفان الازميري « Métrophane de Smyrne » الذي روى هذه الحوادث لرجل رفيع المقام كان بمقدوره ان يحتج في هذه المعلومات المروية ان القضية تقدم على الشكل التالي : لقد اصرّ اغناطيوس طويلًا على رفضه تقديم استقالته، غير ان عددًا كبيرًا من سراة القوم وحتى من الاساقفة المنتمين الى حزبه قد الحوا عليه ان يقدّم استقالته متذرّعين بطريقة الايكونوميا .

وان كبر سنه ومصاعب الظروف القاسية تتطلب منه ان يستقيل. فانتهى به الامر بان نزل على رغباتهم. فرجا انصاره (ص٨٦) الذين كانوا يشجعونه على الاستمرار في مقاومته ان ينتخبوا بطريركاً آخر . فتزلوا عند وجهة نظره واكتفوا باتخاذ بعض الاحتياطات . من جملتها ان يُحسن خلفه معاملته وان لا يرهق انصاره .

ولكي يتفادى (ص ٨٩) اغناطيوس عن الحاق اضرار جسيمة بكنيسته انتهى به الامر الى ان يستقيل وان كان ذلك على رغمه فارتقى فوتيوس سدّة كانت قانونيًا شاغرة .

واردف دفورنيك قائلًا : لقد كانت الحكومة راغبةً في رجل مستقيم وميّالةً الى ان تعين بطريركاً من دون تأخير . فطالب الاساقفة ولاسيما انصار اغناطيوس بالحاح بالتقيّد بالحق القانوني وبعقد مجمع يقدّم ثلاثة مرشّحين فكان ما ارادوا .

وقبل الشروع بالانتخاب كانت ثمة قضية اخرى لا بدّ من ايجاد حلّ لها الا وهي قضية حرم اغناطيوس لغريغوريوس ابستاس(ص ٩٠) في احد المجامع السابقة .

ولقد احرز حزب الاحرار الذي كان رئيسه غريغوريوس الانتصار وبات بعد خلع اغناطيوس باستطاعة المجمع القائم ان ينقض ما عمله رجل آخر ولا سيما

وروما كانت لم تصدق بعد الحكم الصادر بحق غريغوريوس .

وبحضور الحزبين اللذين اتفقا رجاء للشروع بانتخاب فوتيوس اعيدت الى اسبستاس واصدقائه حقوقهم ومن ثم يوشر الانتخاب واتفق المقترعون على اسم فوتيوس الذي رضي عنه حتى اتباع اغناطيوس لانه « رجل جديد » « homo novus » وان كان من حزب الاحرار اذ لم تكن الفرصة قد اتيحت امامه بعد ليظهر صراحة لون حزبيته .

ولقد كان فوتيوس علمانيًا ! وفي غضون اسبوع تلقّى جميع الدرجات الكهنوتية مما هو مخالف للحقوق القانونية . بيد ان المخالفات من هذا النوع لم تكن قليلة (ص ٩٢) . فبولس الثالث ارتقى السدّة البطريركية سنة ٦٨٧ وتاريز « Tarasse » عمّ فوتيوس سنة ٧٨٤ ونقفور « Nicéphore » سنة ٨٠٦ بالطريقة نفسها وكلهم علمانيون ومن دون ان يعتري سلام الكنيسة سجس .

وفي يوم عيد الميلاد اقتبل فوتيوس درجة الاسقفية من يد غريغوريوس اسبستاس نفسه وقد ساعده اسقفان من اتباع اغناطيوس نجهل اسميهما . واول من اهتم له فوتيوس هو ان يقوم بمفاوضات مع اتباع اغناطيوس المتمردين للاتفاق معهم . فنجح في ذلك واتفقوا على كيفيّة معاملة اغناطيوس وانصاره ووقّع ورقة سلّم نسخة عنها الى كل من المعارضين الخمسة الرئيسيّين . وبدا السلام كأنه قد استتبّ ولكنه من نكد الدهر لم يستمرّ الا قليلًا (ص ٩٦ — ١٠٨) . لشدة فتن انصار اغناطيوس ومكايدهم لا لتدخل اغناطيوس نفسه .

وظل الستوديون « Stoudion » مركز المعارضة وفضّل رئيسه نقولا ان يذهب الى المنفى يتبعه عدد كبير من رهبانه . اما ما بقي منهم (ص ١١٠) فلم يتنكر لهم فوتيوس . اما الروايات المعارضة له فتحدثنا عن اضطهادات (ص ١١٢) كابدوها بيد انه لا ينبغي لنا الا ان نرى فيها تعبيرًا عن استياء المؤرخين الذين اسخطتهم قوانين مجمع سنة ٨٦١ الذي عقده فوتيوس واتخذ فيه البطريرك الجديد تدابير شديدة الصرامة ليضع نظاماً لحياة الرهبان ولمساوئهم التي غدت موضوع قلاقل مستمرة .